الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية
إشكالية الهوية أو البحث عن الذات

الطالب الباحث: قردان الميلود

جامعة تلمسان ـ الجزائر

أثار مصطلح الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية جملة من الإشكالات المنهجية والإديولوجية حول ماهيته ودقة تصنيفه، وقد تضاربت الآراء حول جنسيته الأدبية، بين قائل إنه أدب جزائري محض لا غبار عليه، وبين من يعده أدبا فرنسيا محضا استنادا إلى الأداة اللغوية التي كتب بها، ورأي ثالث يعده أدبا فرنسيا ذا روح جزائرية، وبين هذه الآراء المتضاربة وجد هذا الأدب نفسه في دوامة البحث عن الشرعية الأبوية الأدبية، وبناء على ما سبق فإن فكرة موت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية التي شاعت في ستينيات القرن المنصرم تبدو نسبية إلى أبعد الحدود.

Résumé: Le terme « littérature algérienne d'expression française » pose un certain nombre de problèmes méthodologiques et idéologiques sur son essence et son classement.

Il ya eu une confrontation d'opinions quant à ses origines littéraires entre ceux qui disent que c'est une littérature purement algérienne et entre ceux qui la considèrent comme une littérature française en s'appuyant sur les outils linguistiques qui lui ont servi de matériaux. Un autre groupe la considère comme étant une littérature française avec une âme algérienne. Parmi ces opinions contradictoires cette littérature s'est retrouvée en quête d'une parenté littéraire.

En se basant sur ce qui a été dit, nous pouvons dire que l'idée de la mort de la littérature algérienne d'expression française écrite dans les années 60, reste une idée relative.

تطرح قضية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إشكالات كثيرة منذ ظهوره إلى غاية اليوم، و لا يبدو أن النقاد و الكتاب سيستقرون على حل وسط يرضي جميع الأطراف الفاعلة، والمهتمة بهذا اللون الأدبي الذي عرفته الساحة الأدبية العربية بسبب الازدواجية اللغوية، والتي كانت نتاجا طبيعيا للحقبة الاستعمارية الفرنسية، والتي ابتليت بها دول شمال افريقيا وسوريا ولبنان.

ولعل هذه الازدواجية قد لا نلحظها بشكل كبير وفاعل لدى الدول التي تسلط عليها الاستعمار الأنجلوساكسوني مثلما نجدها لدى الدول التي رزحت تحت وطأة الاستعمار الفرنكفوني لاسيما الجزائر، التي عمل فيها المستعمر الفرنسي جاهدا على طمس الهوية الوطنية ومحاربة اللغة العربية من خلال التضييق على المدارس الحرة التي أسستها جمعية

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

العلماء المسلمين الجزائريين، وحزب الشعب الجزائري بمبادرة الخيرين والمخلصين من أبناء الوطن، ولم يتوان الاستعمار الغاشم لحظة واحدة في الزج بالمعلمين الأحرار في السجون، وتلفيق مختلف التهم السياسية وإلصاقها بهم، والتي تعد الواحدة منها كافية ليقضي أحدهم ما تبقى من عمره في غياهب السجون، بل واعتبر الاستعمار تعليم اللغة العربية جريمة يعاقب عليها بموجب القانون الفرنسي لأنها لغة أجنبية، ولم يبق من يعلم العربية إلا بعض الكتاتيب المنتشرة في الأحراش والجبال وأقاصي الصحراء وبعض الزوايا، لذلك لم يجد الشعب الجزائري بدا من إلحاق أبنائهم بالمدارس الفرنسية، والتي كانت تغرس في نفوس الناشئة من الجزائريين أفكارا استعمارية سامة، على شاكلة فرنسا الوطن الأم، والجزائر قطعة فرنسية، والعرب غزاة متوحشون، والفتح الإسلامي لشمال إفريقيا احتلال واغتصاب، وبغية تحصين أبناء الجزائر من هاته الأفكار القاتلة، كان بعض الجزائريين من يتبع نظاما خاصا في تعليم أبناءه وذلك بإلحاقهم بعيد صلاة الفجر بالكتاتيب لحفظ القرآن، ولتعلم قواعد العربية، ثم يلتحقون بعد ذلك بالمدرسة الفرنسية، وبعد انتهاء ساعات الدوام يعودون من جديد إلى الكتاتيب تنمية لمناعتهم الفكرية، وبالمقابل هناك فئة أخرى كان تعليمها تعليما فرنسيا محضا، تشربوا حب الثقافة الفرنسية حتى أضحوا ينافسون الفرنسيين أنفسهم في لغتهم وثقافتهم ونمط عيشهم، مع الإشارة إلى التفرقة والتمييز العنصري كانا حاضرين بقوة بين أبناء الأهالي من جهة، وبين أبناء الفرنسيين والمعمرين في المدارس الفرنسية من جهة أخرى، وغالبا ما كان يطرد التلميذ الجزائري المتفوق لأتفه الأسباب حتى يقطعوا عليه طريق النجاح من أول خطوة .

كل هذه العوامل وغيرها أسهمت في خلق الازدواجية اللغوية وتنميتها مما أوجد جيلا من الكتاب الجزائريين يكتبون بلسان وقلم أجنبيين، وذلك بسبب هيمنة اللغة الفرنسية وظروف تلك الحقبة المظلمة من تاريخنا الوطني، هذا الجيل الذي أسس لمرحلة جديدة في الكتابة، لم يلق الإجماع والقبول من طرف النخب الأدبية والثقافية في الجزائر، بل وعدت الكتابة باللغة الفرنسية جهلا وتفريطا في اللغة العربية وعدم إلمام بالتاريخ الإسلامي التليد، الذي أشعت حضارته على الدنيا بأكملها ردحا من الزمن، حيث كانت العربية اللغة الرسمية لهاته الحضارة الإنسانية، وها هو عبد المالك مرتاض في طليعة هؤلاء الرافضين لهذا الانبهار والتهافت الذي أصاب بعض الكتاب الجزائريين، إذ يقول: "و قد ظل هؤلاء الكتاب في معظمهم معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص، والحضارة الغربية بوجه عام، جاهلين بالتاريخ العربي، غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية، إذ أنى لهم أن يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الإلمام الكافي بلغتهم، التي بواسطتها يطعون على التراث العربي وكنوز حضارته الغنية بمعطياتها الإنسانية، إطلاعا حقيقيا خاليا من الشوائب والشرور "[1].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و مع تنامي الوعي الوطني والفكر السياسي القومي، أصبح الكتاب الجزائريون بالفرنسية موضع اتهام من طرف المجتمع الجزائري لاسيما نخبه العربية المثقفة، ونتج عن ذلك أن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أضحى يتخبط في إشكالات نقدية وفكرية، حول جنسيته، وهويته، وخصوصيته ورسالته .

فمن حيث التسمية نجد أن هذا الأدب لم يتخذ اسما واحدا، بل تخفى وراء تسميات متعددة، فمنهم من يطلق عليه اسم الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وأخر يسميه الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، وثالث ينعته بالأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري .

أما من حيث الجنسية والهوية فإن مدارس الأدب المقارن تختلف جذريا فيما بينها، فمثلا المدرسة الفرنسية ترتكز على عنصر اللغة كعامل محدد وفاصل في تحديد هوية النص الأدبي، على خلاف المدرسة الأمريكية التي تستبعد عنصر اللغة وتعوضه بعامل القومية كشرط لإجراء الدراسة المقارنة حول تحديد هوية النص المقارن .

و إذا حاولنا تطبيق مبدأ المدرسة الفرنسية التي تعتمد على عنصر اللغة كعامل محدد لهوية النص الأدبي، تعترضنا إشكالات كثيرة حول تحديد هوية الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة فرنسية، فهل هو أدب فرنسي خالص، لسبب بسيط وهو الأداة التي كتب بواسطتها وهي اللغة الفرنسية، أم أنه أدب جزائري بلسان فرنسي لأنه وإن كتب فعلا بلغة فرنسية لكن مضمونه يختلف عن الأدب الفرنسي، فهو يدافع عن آلام وآمال الجزائريين في التوق إلى الحرية والانعتاق، ويفضح ممارسات الاستعمار الوحشية وهو ما يناقض الأدب الفرنسي الذي تبنى في الغالب الأطروحة الفرنسية الزاعمة أن الجزائر قطعة فرنسية، أم أنه أدب فرنسي لأنه كتب بلغة فرنسية لكن بمضمون جزائري وبالتالي لا يمكن تصنيفه على أنه جزائري ولا فرنسي، و هنا يصبح النص الأدبي في حالة تيهٍ يبحث عن أبوته الشرعية.

من أجل هذا يبقى الإشكال قائما ومطروحا ليس بين جمهور النقاد والدارسين فحسب، سواء في الجزائر أو في الضفة الأخرى من المتوسط، بل نجد هذا التباين قائما بين الكتاب الجزائريين أنفسهم الذين يكتبون باللغة الفرنسية، فقد رد مالك حداد بعنف على زملائه من الكتاب الجزائريين، الذين اتخذوا من الفرنسية أداة للتعبير والكتابة في مقال له نشر سنة 1961 بعنوان **" الأصفار تدور في الفراغ "** **" les zéros tournent en rond "**، وقد أعاب الكاتب على أبناء جلدته من المفرنسين التشدق بإبداعاتهم وأعمالهم الأدبية المنشورة باللغة الفرنسية، ولفت انتباه زملائه إلى ضرورة التوقف الفوري عن الكتابة باللغة الفرنسية مع الخيوط الأولى لفجر الاستقلال، لأن مهمتهم تنتهي بمغادرة آخر جندي فرنسي لتراب الوطن، وكان أكثر جرأة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من غيره عندما أقر وصرح بعبارته الشهيرة " اللغة الفرنسية منفاي ولذا قررت أن أصمت ". ردا على "غابريال أوديزيو" الذي قال ":(Gabriel Audisio)إن وطني هو اللغة الفرنسية أجابه "حداد": "الفرنسية هي منفاي .(La langue Française est mon exil) هذه الظاهرة (ظاهرة الغربة، والنفي، والانفصام (أسماها "حداد" "باليأس الفني (Désespoir Technique) "وهي تعبير عن جهله باللغة العربية.

وعرفانا من جيل الاستقلال لوطنية هذا الكاتب المبدع، صدرت أحلام مستغانمي روايتها الأولى "ذاكرة الجسد بهذا الإهداء لروح مالك حداد: "إلى مالك حداد... ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته... فاغتالته الصفحة البيضاء ...و مات متأثرا بسلطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية، وأول كاتب قرر أن يموت صمتا وقهرا وعشقا لها "[2].

في حين إن كاتب ياسين صاحب رائعة " نجمة " يرى أن اللغة الفرنسية غنيمة حرب وفي الحرب لا يهم أن تكون البندقية ألمانية أو فرنسية أو روسية، ويتبنى الكاتب المفرنس " مولود فرعون " طرح زميله فيقول: أنا أكتب بالفرنسية لأقول للفرنسيين إني جزائري.

هذا فيما يتعلق الجدل الدائر بين الكتاب المفرنسين فيما بينهم، أما في الجانب الآخر وهم الكتاب الجزائريون الذين يكتبون بالعربية، فقد انقسموا على أنفسهم هم كذلك، قسم أعطى شهادة ميلاد متأخرة بشرعية الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة فرنسية، لأنه حمل هموم الوطن، ودافع عن حقه في الحرية والانعتاق، ومن بين هؤلاء الكتاب الكاتب الكبير "عبد الله الركيبي"، إذ يقول: " وجملة القول فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية قد أوجد لظروف وأسباب في مرحلة معينة، وهو إن كتب بلغة أجنبية فإنه عبر عن مضمون جزائري وواقع وطني، الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا "[3].

و على نقيض هذا الرأي يقف الدكتور "عبد المالك مرتاض" بخصوص هوية هذا الأدب، إذ ينفي عليه صبغته الوطنية والقومية، بل يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يصفه بالضعيف والعاجز عن الدفاع عن نفسه، فضلا أن يدافع عن القضية الوطنية، فيقول: " إن هذا الأدب غريب في نفسه، و منفي عن موطنه الذي كتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة " [4].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعله من الإنصاف أن نقول إن الناقد الكبير الدكتور "عبد المالك مرتاض" كان قاسيا بعض الشيء في إصدار حكمه على هذا الأدب الذي يحفظ لنا التاريخ أعمالا أدبية خالدة، كتبت باللغة الفرنسية، لكن بروح جزائرية، **كرصيف الأزهار لا يجيب** لمالك حداد، ورواية **ابن الفقير** لمولود فرعون، ورواية **نجمة** لكاتب ياسين، وغيرها من الأعمال الأدبية التي أسقطت القناع الحضاري الزائف للاستعمار الفرنسي الذي تتزين فيه ساحات باريس بشعارات كاذبة زائفة، كالحرية والأخوة والمساواة، والمفارقة العجيبة هي أن هؤلاء الكتاب الذين وفقوا في إكمال دراستهم باللغة الفرنسية كان الاستعمار يعول عليهم كثيرا ليكونوا أداة مسخ وطمس لهويتهم، فإذا بالسحر ينقلب على الساحر، فيفضح هذا الاستعمار بالأداة التي وظفها وراهن عليها كثيرا للنيل من هوية هذا الوطن وتاريخ أبناءه، ألا وهي اللغة الفرنسية، و في هذا ألم مضاعف، ونكسة قاتلة للمستعمر الغاشم .

أما في الجانب الآخر، ونعني بهم الكتاب الفرنسيون، فقد تباينت آرائهم كذلك حول جنسية وهوية هذا الأدب، فمثلا نجد أن" **charles boun** "، يصف هذا الأدب على أنه مزدوج الهوية، إذ يحمل في داخله الهوية الأوروبية أو الغربية مثلما يحمل الهوية العربية، ذلك لأنه تغذى من الثقافتين في آن واحد، " ولا نستطيع تحديد الأولى إلا بالثانية، غير أن الحضور الإيديولوجي هو الذي يحتم عليه تحديد قوميته، أو هويته العربية الجزائرية دون الإشارة إلى اللغة، و هذا التحديد لا يمكن أن يكون له أي معنى إلا في حضور العنصر الأجنبي المتمثل في اللغة والثقافة العربية " [(5)].

ويخالف" **Jean Dejeux**" الرأي السابق في كونه الأدب المغاربي ذو اللسان الأجنبي، وعلى رأسه الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون باللغة الفرنسية لا يخرج عن كونه أدبا مغاربيا بمعنى ينتمي لهوية وقومية كاتبه بصرف النظر عن اللغة التي كتب بها " سيظل الكاتب المغربي باللغة الفرنسية يمثل مغرب اليوم، في ثقافته وتحولاته وتساؤلاته، على الرغم من كونه يحمل البصمة الأجنبية في كتاباته"[(6)].

وعن هذا السجال الدائر يبدي آمين الزاوي رأيه حول هذا الموضوع لا سيما وأنه من الكتاب الجزائريين القلائل الذين زاوجوا في إبداعاتهم بين اللغتين (العربية/الفرنسية) وإن كان هواه إلى الفرنسية أميل، يقول الزاوي:" حين أطلق الروائي والشاعر مالك حداد (1927 . 1978) عبارته الشهيرة والتي قال فيها إن اللغة الفرنسية هي منفاي ثم قال فيما بعد، غداة الاستقلال، مع استرجاع الجزائر لاستقلالها واسترجاعها لهويتها الثقافية: لم يعد هناك داع للكتابة باللغة الفرنسية، ثم صمت عن الكتابة وقاطعها. ثم توالت تصريحات وأحكام كثير من النقاد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجزائريين من الجيل الجامعي الأول (الدكتور عبد الملك مرتاض والدكتور عبد الله الركيبي وغيرهما) والذين أعلنوا فيها وبصيغ مختلفة وإيمانية متفاوتة بأن الموت هو مآل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. ولكن ما الحال وقد مضى على هذا القول والتخمينات الثقافية قرابة النصف قرن؟ هل تحققت بالفعل نبوءة هؤلاء النقاد من أساتذتنا الذين نكن لهم احتراما كبيرا؟...لقد بدأ الحقل اللغوي الإبداعي يدفن شيئا فشيئا فكرة نهاية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية مع صعود ظاهرة الروائي ياسمينة خضرا (محمد مول سهول) وهو الذي تربى في المؤسسة العسكرية الجزائرية، إذ لا غبار عليه من حيث الموقف السياسي أو التربية الوطنية، وذلك بنشره مجموعة من الروايات التي أدهشت القارئ في المعمورة قاطبة وترجمت إلى لغات كثيرة، وهو ما سجل عودة قوية للأدب الجزائري على الساحة الوطنية والعالمية.[7].

ومهما يكن من أمر ومهما تباينت الآراء والرؤى حول جنسية هذا الأدب، فإننا نرى أنه بات من الضروري الإقرار بشرعية هذا المولود الأدبي، والاعتراف بجنسيته الجزائرية، حتى وإن كان بلسان أجنبي، ذلك أنه لا يمكن دراسة الظاهرة الأدبية من حيث كونها ظاهرة إنسانية بمعزل عن الظروف المحيطة بها، وهذا ما ينطبق تماما على كتاب تلك الحقبة الزمنية الكالحة، والتي عانى فيها الشعب الجزائري من ظلم وجور الاستعمار الفرنسي، إذ لم يجد الكتاب الجزائريون المفرنسون من وسيلة لمقارعة هذا الاستعمار الصليبي غير اللغة الفرنسية، بوصفها الوسيلة الأكثر نجاعة وفعالية، وذلك من خلال النزول إلى الطبقات الاجتماعية الكادحة، ونقل آلامها وبؤسها ومعاناتها، في زمن كانت فيه الأصوات الداعية للذوبان والاندماج في المجتمع الفرنسي ترتفع شيئا فشيئا، ومسيطرة على الحقل الثقافي آنذاك، فمثلا " شكل ظهور رواية **الدار الكبيرة** "لمحمد ديب" سنة 1952 منعطفا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على مستوى المضمون، فلأول مرة تتجاوز فيه هذه الرواية صالونات المثقفين ومناقشاتهم الفوقية عن العدالة والمساواة في ظل الحكم الاستعماري، و وهم التعايش السلمي بين الأهالي والمعمرين عن طريق الدعوة إلى الاندماج والزواج المختلط، لتنزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، وتتحدث عن هموم الناس البسطاء من عامة الشعب، وتصف أحوالهم المعيشية القاسية ومعاناتهم من الجوع والفقر والقهر، ولأول مرة تتحدث عن الضال السياسي الجزائري، وعن مناضلين يعيشون في الخفاء، مطاردين من قبل البوليس الاستعماري، ولأول مرة تطرح تساؤلات محددة وصريحة عن الهوية الوطنية، وعن مفهوم الوطن وعن الهوية الحقيقة للجزائريين"[8].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن هذا الأدب وقف في عمومه مع القضية الوطنية، واحتضن الفكرة الوطنية، وأوقد جذوتها لدى جمهور القراء المفرنسين على الأقل، والذين كانت تساور بعضهم الشكوك في وجود الأمة الجزائرية أساسا، فضلا على وجود الوطن الجزائري. إنه لمن الإجحاف والظلم الذي لا يستسيغه العقل ولا المنطق، أن نبخس جيلا من الرعيل الأول من الكتاب المفرنسين، الذين واجهوا الاستعمار بالقلم وبسلاحه، فكانت كتاباتهم ضربة قاسية في نحور المنظرين الاستعماريين، الذين كانوا يعقدون آمالا عريضة على هؤلاء الكتاب الجزائريين المفرنسين ليكونوا الأداة الطيعة التي تلمع صورة الاستعمار القبيحة لدى العالم، ويبشرون لأطروحة الرسالة الحضارية والإيجابية للاستعمار في شمال إفريقيا لاسيما الجزائر.

وخلاصة القول إن الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة فرنسية- لاسيما بعد مجازر 08 ماي 1945- في الحقيقة هو أدب جزائري ناصع، تحدث بلسان الآخر عن الذات الجزائرية، عن الأنا الجزائرية، عن الأرض عن الدم، عن الهوية المهددة في عمقها وجوهرها، عن للتاريخ عن الجذور، ولم تشغله ساحات فرنسا الواسعة، ولا قصورها الفخمة، ولم يغره تدفق مياه نهر السين يشق باريس إلى نصفين، ولا قصر فرساي، بل شغلت باله صرخات المعنبين في مداشر الجزائر وقراها التي تكالب عليها الاستعمار والجهل والفقر والمرض من خلال رواية **الربوة المنسية** لمولود معمري، ومعاناة الشعب الجزائري الفقير من خلال رواية **ابن الفقير** لمولود فرعون، وأرقته المطاردات البوليسية المتواصلة للمناضل الجزائري الثائر في رواية **الحريق والدار الكبيرة** لمحمد ديب، مثلما ألهبت حماسه الثورة الجزائرية في **سأهبك غزالة** لمالك حداد.

إن هذا المخاض العسير الذي يعيشه الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، في دوامة البحث عن هويته، ومحاولته إثبات ذاته، هو حقيقة واقعية لابد من التسليم بها، والاعتراف بأبوته الجزائرية، حتى وإن رأى البعض أنه دخيل هجين، غريب عن ذاته.

مراجع البحث وإحالاته:

1-مرتاض عبد المالك: نهضة الأدب العربي في الجزائر (1925 - 1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.02، 1983، ص 26.

2-أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، دار الآداب بيروت، 2000، ط.15، ص 05.

3عبد الله الركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط.01، 1983، ص 249.

4-مرتاض عبد المالك: نهضة الأدب العربي في الجزائر، مرجع سابق، ص 06.

-5 Bonn -Charles-la situation algérienne national ; après l'indépendance –paris notre libraire 85 oct. 1986 ,p 36.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-6 ARNAU jean- la littérature de lange française paris ,T 2 le cas de kateb Yacine , publi sud , 1982, p606 .

7. الشروق اليومي: 08/04/ 2009.

8. أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 106.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com